BRITAIN. WAR-CHANGED AND CHANGELESS

HENRY BAERLEIN

بريطانيا التى غيرتها الحرب ولم تتغير*

من الطبيعى أن يسائل المرء بعد حرب كبيرة متى تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل ، بحيث تكون فى الوضع الذى كان يعتقده عاديا . على أنه لو لم تقم الحرب ألا تتغير الأمور فى الدولة غير الراكدة بحيث يصبح ماهو عادى اليوم غير عادى فى الغد ؟ هنالك المثل الفرنسى القائل كلما بدت الأمور متغيرة كانت متماثلة . فكيف نوفق بين هذه التناقضات فى الظاهر ؟ إنا سنحاول إثبات أن بريطانيا اليوم تختلف عنها فى السنوات السابقة للحرب الأخيرة ، وأنها فى الوقت نفسه لا تزال هى بريطانيا تلك الأيام .

ماهى التغيرات البارزة التى سببتها الحرب ؟ أول مايبرز للعيان التغيرات المادية ؛ ففى لندن وفى غيرها من المدن الكثيرة جروح شريفة وأرض فضاء حيث كان يقوم هنا بناء وهناك آخر ، وساحات نمت فوقها الأزهار البرية التى هى أكاليل تبجيل للحداد . على أن هذا الدمار ليس هو أهم الخسائر الهامة التى تحملتها بريطانيا . فلقد كانت خسارتها فى قوى الرجال فادحة . ولاريب فى أن شباب الأمة كانوا السواد الأعظم من الضحايا التى قدمت على مذبح الأقدار ، فصار ما بقى من الأيدى لا يكفى للقيام بالأعمال . ثم فى الوقت نفسه ، لا يستطيع أولئك الذين خدموا فى الجيوش المسلحة ، وعاشوا عيشة تختلف كل الاختلاف عن دورة الصناعة المستمرة ، أن يوطنوا النفس على حياة تسير على وتيرة واحدة . فالجواد الذى ربى للسباق ليس أصلح جواد يشد إلى العربات . والكثير من هؤلاء الشبان نشأ فى وسط متضع وارتفع إلى مرتبة عالية فى الجيش . وليس عجيباً ألا يرغب بعض هؤلاء فى العودة إلى المكان الذى كانوا يشغلونه لو لم تقم هذه الحرب . و إنى لأعرف رجلا

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

كان يعمل فى حانوت أبيه الذى يبيع أدوات الطهى ولوازم البيت فى بلدة من البلاد الواقعة على شاطئ البحر ، وقد وصل فى الجيش إلى مرتبة كابتن ، وأبى أن يعود إلى مهنة البيع . غير أن ساقى النبيذ فى النادى الذى اشترك فيه ، ارتفع فى الجيش أيضاً إلى مرتبة كابتن ، ومع ذلك آثر أن يعود إلى عمله السابق . وبينما يضع على صدره شارة لا تمنح لغير الضباط ، نراه يقوم بعمله خير قيام كما يجب أن يفعل ساقى النبيذ دائماً فى الأندية ، وهو يخاطب رجالا هم أصغر منه سنا ، ولو استمرت الحرب لكان يصدر الآن إليهم الأوامر ، بكل مجاملة ، وكلمة « سيدى » تختتم كل عبارة من عباراته . والواقع أن هذا المسلك يتوقف على طبيعة الشخص .

ذكرنا أنه لم يبق فى بريطانيا من الرجال ما يكفى للأعمال التى ينبغى القيام بها . فلنسائل إذن لماذا لا يظل النساء بعض الوقت فى عملهن ، وقد سبق أن حللن محل الرجال فى ميادين عدة داخل بريطانيا ؟ لقد نفذ هذا الإجراء لحد ما ، فقد استمر آلاف من الفتيات اللاتى عملن فى سيارات الأجرة فى عملهن بناء على رغبة السائقين الذين وجدوا منهن خدمة صادقة ، وتستطيع الفتيات القيام بهذا العمل بمثل الكفاية التى يظهرها الرجال . لذلك كان من حسن التدبير الاقتصادى أن يبقين فى هذا العمل ليقوم الرجال الذين شغل هؤلاء الفتيات مكانهم بأعمال غير ميسورة للنساء .

وفى بريطانيا اليوم عدد من أسرى الحرب يقومون بأعمال مختلفة كالزراعة مثلا ، ولا يرغب الزارعون فى كثير من الأحوال أن يستغنوا عن هؤلاء الأسرى ، لا سيما الألمان منهم ، الذين هم أكثر نشاطاً من غيرهم . والزراعة تشغل على غير مايعتقده الناس أكبر نسبة من العمال فى بريطانيا . ولايقوم الاعتراض على تشغيل الأجانب فيها كما هو الشأن مثلا فى صناعة التعدين . على أن فى هذه الصناعة نقصاً ظاهراً فى الأيدى العاملة ، فالكثيرون من العمال يأبون اليوم أن يربوا أولادهم على هذا النوع من العمل . وقد قوبل اقتراح تشغيل البولونيين فى المناجم بالاعتراض من نقابات العمال ومن البولونيين أنفسهم ، إذ أنهم لا يرحبون كثيراً بهذا العمل . ولكن جمعيات التعدين رضيت بهم الآن ، على أن يكون من المفهوم أنهم أول من ينحى عنه إذا كان العرض بين العمال البريطانيين يزيد على الطلب .

ومن التغييرات النفسية فى بريطانيا بعد الحرب تقلص الميل إلى العزلة ، لا بين الرجال والنساء الذين كان من نصيبهم أن يعملوا أثناء الحرب فى البلاد الأجنبية وحدهم ، بل أيضاً بين الذين أقاموا فى البلاد البريطانية . وقد أتيحت للبريطانيين الفرصة فى أنحاء كثيرة من بريطانيا لأن يتصلوا ببعض الحلفاء ، وحدث أن تم الزواج بين عدد كبير من النرويجيين والهولنديين وغيرهم من الحلفاء المقيمين مؤقتاً فى بريطانيا وبين عدد من الفتيات البريطانيات . وسيقيم بعض هؤلاء الأزواج فى بريطانيا ، وسيرى جيرانهم أن الأجانب قد يكونون من خيار الناس . ومن العوامل التى قاومت الميل إلى العزلة أن الحرب كانت حدثاً عالميا ؛ وكانت الصحف تنتقل بنا إلى سائر أنحاء الكرة الأرضية ، فصار أقل الناس ابتعاداً عن داره على علم ، لحد ما ، بأماكن كان يجهلها كل الجهل .

وأمام هذه التغيرات فى الطباع الوطنية البريطانية يجب أن نحسب حساباً للأمور التى بقيت وستبقى على ما يظهر ثابتة لا تتغير : مثال ذلك أن من العادات الثابتة فى المعهد الدولى بلندن منذ مائتى سنة أن تلقى محاضرة أسبوعية تستغرق ساعة واحدة تماماً . فاذا أراد المحاضر أن يتكلم أكثر من ساعة كان عليه أن يستأذن المستمعين . وقد حدث منذ سنوات عدة أن فلكى القصر كان يلقى محاضرة ، فنسى نفسه وهو يسرد أقوالا فى غاية الخطورة وتابع كلامه بعد فوات الوقت بعشرين دقيقة ، فأثار ذلك نقد الحاضرين . وقد وجه أحد زائرى المعهد سؤالا لأحد موظفيه — ولكل عضو أن يستصحب زائرا — هل عدل عن هذه المحاضرات فى الوقت الذى كانت فيه لندن هدفاً لأسلحة هتلر الكريهة ؟ فأجاب : كلا ! إن نابليون لم يقف محاضرات المعهد ، ولم يستطع هتلر وقفها .

ومثل حسن لهذا الاستمرار نجده فى محل كريد الشهير لحياكة الثياب وهو الآن فى جيله السابع ؛ فأصحابه كانوا أول من حاك أثواب النساء من الصوف . وقد انتقل رأس هذه الأسرة من الريف إلى لندن فى سنة ١٧١٠ . ومنذ بضعة أشهر كان أحد أفراد سلالته يتحدث إلى إحدى الصحف وقرأ عليه الصحفى عبارة أراد أن يضمنها مقاله ، وفيها يذكر « مجموعته الجميلة من ثياب سنة ١٩٤٧ » . على أن مسنر كريد أبدى شيئاً من القلق لأن الصحفى لم ير

تلك الثياب ، ولكنه رضى أخيراً بالعبارة لأن أسرة الصحفى ظلت ثلاثة أجيال ترتدى الثياب من صنع كريد . فللصحفى إذن الحق فى إبداء هذا الرأى حتى قبل أن يرى ما سيظهر فى الموسم الجديد . ثم قال مستر كريد : « يجب أن تضيف لهذا القول أن نوع الأصواف الانجليزية التى ترسل للخارج لم يتأثر بالحرب مطلقاً » .

وقد يكون من فائدة بريطانيا أن تنظر إلى نفسها بالعين التى ينظر بها الأجانب إليها . وقد كان فى بريطانيا فى السنوات الأخيرة من الأمريكيين أكثر من غيرهم من الأجانب ، وانتقد هؤلاء بعض الأمور ، ولو استطاعوا تغيير هـذه الأمور لفعلوا ، ومنها عـدم وجود وسائل التدفئة فى الدور . وذكر أحدهم أنه وجد فنادق لندن أكثرا ستعداداً بوسائل الراحة بعد أن زار بلاكبول ، غير أنه وجد فى الفندق الريفى من حسن المجاملة وعناية صاحب الفنـدق ماعوضه كثيراً ، فتلك الجهات البعيدة تكتسب عطفك بجميل العذر . وذكر أنه قابل فتى وفتاة فى عربة القطار ، فقدما له قطعة من الكعك ، فرفضها معتذرا متأثراً بفكرة الطعام المحدد للناس فقالت له الفتـاة لا بأس إنها غير متقنة ، فأخذ القطعة ليثبت لها العكس فوجدها لذيذة جداً .

ولقد أتقن هـذا الأمريكى وسيـلة إلى غسل قمصانه . ذلك أنه يشترى قطعة من الصابون وشيئاً من الشكولاته ويتخذ مظهر الوداعة ، ثم يتحدث إلى صبى من خدام الفندق زاعماً أنه من أصل بريطانى وأنه ابتدأ تعليمه فى مدارس بريطانيا عندما كان صبيًّا أصغر منه . فلا يلبث هذا الغريب أن يكتسب عطف الصبى بهذا الحديث . وقد يقول له الصبى على سبيل المجاملة : « لا أظن أنك تتكلم الانجليزية كغيرك من الأمريكيين » . وعندئذ يحدثه عن مشكلته فيقول الصبى إن له أمًّا ، وأنه سيسألها هل تستطيع غسل بعض القمصان ، وحينئذ يعطيه شلنين ونصف شلن من النقـود ، وقد يعيدها الصبى فى اليوم التالى قائلا إن أمه لا ترغب فى قطعة النقود ، وإنما تريد قطعة من الصابون ، وحينئذ يفسر له الأمريكى أن النقود ليست لأمه بل له ويرسل قطعة الشكولاته لأخيه ، وإذا القمصان تعود نظيفة . أما الأجر فيطلب إليه ستة بنسات عن القميص

فكان لا يدفعها بل يزيدها ثلاث مرات ، فصار عنده مورد من القمصان النظيفة .

أجل ! فبالرغم من الشدة السائدة فى الوقت الحاضر ببريطانيا وبالرغم من كل الأمور التى لم تتغير وما تم من تغيير فى السنوات الأخيرة . فان الحياة فى كثير من أنحاء العالم أقل متعة منها فى بلاد الانجليز .

هنرى بيرلى

. نقلها إلى العربية ز. ى. ع.

تنبيـــــه

سقط عند طبع قطعة « صورة الفنان » المنقولة عن الفرنسية للأستاذ هنرى القيم الاشارة إلى أنها مقتبسة من كتاب له سيظهر فى باريس . وهو أثر لما علق بنفسه من صور الفنان المصرى العظيم محمود بك سعيد .